نشأة علم التاريخ عند العرب وتطوره في القرون الثلاثة الأولى:

1. يُكوّن علم التاريخ عند العرب جزءا من التطور الثقافي العام، وصلته بعلم الحديث وبالأدب وثيقة، وتستحق اهتماما خاصا، ثم إنّ ظهور الإسلام وتكوين الإمبراطورية والتصادم بين الآراء والتيارات الحضارية وتطور الأمة وخبراتها كل هذه الأمور حيوية لفهم التطورات الأولى للكتابة التاريخية. ومع أن علم التاريخ عند العرب ظهر في صدر الإسلام إلا أن الاستمرار الثقافي يوجب الالتفات إلى تراث ما قبل الإسلام.

لقد خلّفت لنا ممالك جنوب الجزيرة العربية (1200ق م -527م) كتابات سُجلت فيها مختلف الفعاليات (حملات/مشاريع/جزية) ونجد فيها طريقة مشوشة لتأريخ الحوادث... بالإضافة إلى ذلك فإن المؤرخ الهمداني يشير إلى وثائق ملكية وسجلات حميرية حُفظت واستفيد منها، وإلى (زُبُر) أو وثائق وسجلات للأنساب حفظتها بعض العشائر...

يقول الهمداني في تعريفه بعالم يماني أنه "وارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها" وأنه "قرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية" ويذكر أن أنساب ولد الهميسع "كانت مزبرة في خزائن حمير وكذلك أنساب الملوك عن ولد عمرو بن همدان" ويقول عن نسب اللعويين "وهذه نسبة اللعويين مقيدة الأصول أخذته عنهم رواية عن زبور قديم بخط أحمد بن موسى" ويقول في مكان آخر أنه أخذ نسب بني لعوة "نقلا عنهم في أيامهم ببلدة ريدة وعن الزبر التي في أيديهم" وقارن ذلك بما يرويه هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره من النساب ثم يقول "والمروانيون باليمن يعملون على ما قيده آباؤهم من نسبهم وحفظوه كابراً عن كابر" نقلا عن الإكليل للهمداني"

إلا أن الروايات اليمانية الموجودة في المصادر الأولى بمجموعها ذات طابع أسطوري حتى الروايات المتأخرة عن قبيل الإسلام عند وهب بن منبه وعبيد بن شرية أغلبها (خيالي/شعبي/إسرائيلي...) مع نسبة كبيرة من الشعر الموضوع، وأسباب هذه الظاهرة تتصل بظروف صدر الإسلام السياسية والجغرافية... فالعصبية والتنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب أدّت إلى بعض التعصّب عند نسابي الشمال؛ إلى جانب أن المسافات البعيدة كانت سببا أعاق علماء الشمال من زيارة اليمن أو البحث فيها، ولذلك ينتقدهم الهمداني بقوله "فوجدت أكثر الناس يخبط خبط عشواء ويعمه في حندس طخياء" وهو يرى في عصبية نساب العراق والشام عاملا في إرباك سلسلة اليمانيين فيقول:" وكذلك سبيل نساب العراق والشام يقصرون في انساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهوا بها عدة الآباء من ولد إسماعيل" ويقول عنهم: "قلّتْ رحلتهم إلى من قطن منهم باليمن..." ومن ثمّ فهم أقرب إلى القصاص منهم إلى المؤرخين، أما في شمال شبه الجزيرة فقد كانت للمناذرة كتب تحوي أخبار الحيرة وسير أمرائها وأنساب

عربها وقد كانت محفوظة في كمائنها [يضيف د. السيد عبد العزيز سالم في كتاب التاريخ والمؤرخون العرب أن الطبري يورد قول هشام: "كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة"]

هذا وقد كانت لدى عرب الشمال روايات شفوية عن آلهتهم ومآثرهم الاجتماعية وأنسابهم وغزواتهم المعروفة (بالأيام) وهذه الأخيرة تجد عناية خاصة في المجتمع القبلي يتداولونها بصورة نثرية لكن الملاحظ أنّ الشعر يلعب فيها دورا أساسيا في الرواية الشفوية حتى أن ابن فارس يقول: "الشعر ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعُرضت المآثر..." وينبغي أن نشير إلى أن فترة صدر الإسلام بتياراتها السياسية والاجتماعية أثرت في أدب (الأيام) كما أنها لا تخلو من عصبية، وتمثل جانبا واحدا، وهي مرتبكة من ناحية التوقيت، وبنقصها التآلف والسبك، وليست فيها فكرة تاريخية، ومع ذلك فأسلوب قصص الأيام مباشر، يفيض حيوية، وهو واقعي يحوي مع الخيال الحقائق التاريخية، ويختلط فيه الشعر بالنثر. وعلى العموم لم تترك الفترة الجاهلية أدبا مكتوبا فهي في فترة ثقافية شفوية.

2. جاء القرآن بنظرة جديدة للزمن والماضي منذ بدء الخليقة وأكّد على أمثلة التاريخ الغابر للأمم والشعوب للتأكيد على العبر العقائدية والخلقية إلى جانب النظرة القرآنية العالمية، فالمسلمون خلفوا كل الأمم السابقة ذات النبوات، ونبوة الرسول هي الخاتمة، إذن فشؤونهم وأعمالهم تستحق العناية وفي ذلك تقرير للإجماع "لا تجتمع أمتي على ضلالة" ثم إن القرآن نصّ على أن أقوال الرسول وسيرته كلها مُثُلٌ يقتدون بها، وكلها دوافع للمسلمين كي يدرسوا كل التاريخ.

هذا وقد شعر العرب بعد ذلك بأنهم أصحاب رسالة، فجعلتهم الفتوحات يحسون بأن لهم دورا خطيرا، وأثناء ذلك وضع لهم عمر بن الخطاب تقويما ثابتا، فأصبح ذلك حافزا قويا لتأريخ الحوادث، كما قام عمر بتسجيل المحاربين وأهليهم حسب القبائل، فأعطى الأنساب أهمية جديدة... ومن كل هذا وذاك سارت بدايات علم التاريخ في اتجاهين: الاتجاه الإسلامي الذي ظهر عند أهل الحديث، والاتجاه القبلي الذي يمثل استمرار التراث الجاهلي وهذان الاتجاهان يمثلان التيارين الكبيرين في صدر الإسلام، ولقد كان الاتجاه الأول غالبا في المدينة (الحجاز) وكان الثاني غالبا في البصرة (العراق) ولقد كانت هذه المراكز عواصم للنشاط الثقافي، وصار لكل اتجاه مدرسة تاريخية، إلى أن تغلّب في الأخير الاتجاه الأول في كتابة التاريخ.

3. كانت أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأعماله وسيرته ومغازيه، وكذا سير الصحابة ومغازيهم، مصدر اهتمام واعتزاز لدى المسلمين، وكانت مواضيع محببة في مجالس السمر بل وتلقينا للأبناء لتربيتهم...

ومن ثمّ بدأت دراسة [المغازي] ضمن دراسة الحديث، ولكن بشكل يتعدّى الاقتصار على نواحي التشريع، فكان كُتّاب المغازي كالمحدثين بدليل تأكيدهم على الإسناد، فكوّن ذلك أساسا متينا للدراسة التاريخية، وقد قام بكتابة المغازي بعض أبناء الصحابة البارزين نذكر منهم:

- أبان بن عثمان بن عفان (ت95 أو 105) محدث له ميل إلى المغازي نقل عنه المؤرخون بل المحدثون فكان مرحلة انتقال.
- عروة بن الزبير (94هـ) فقيه محدث لكنه أول من ألف كتابا في المغازي، نقل عنه المؤرخون وله أسلوب بسيط ونظرة واقعية، ومنزلته الاجتماعية ساعدته على نقل المعلومات من مصادرها (عائشة وآل الزبير...) وبعض وثائق البلاط الأموي، وعلينا أن نشير إلى أن دراسات المغازي في البداية كانت أعمالا جماعية، وأن فعاليات الأفراد كانت جزءا من مدرسة.

الزهري (124هـ) لم يقتصر على روايات عروة، بل روايات المدينة كلها، ووضعها في إطار متين وواضح، فهو أول من أعطى "السيرة" —وهو التعبير الذي استعمله – هيكلا محدودا، ورسم خطوطها بوضوح، مراعيا التسلسل التاريخي للحوادث... كل ذلك أخذه من الحديث، إلّا قليلا من القصص (الأنبياء) كما أنه اهتم بالمشاكل التي صادفت كل الخلفاء الراشدين ليظهر أهمية تجارب الأمة، وللزهري كتاب في الأنساب، وقد وُجدت أعمال عديدة من مؤلفاته في خزانة البلاط الأموي، فكان أول من كتب رواياته بصورة منظمة، فخدم بذلك الدراسات التاريخية.

- عروة بن شرحبيل (123هـ) اهتم بتقديم قوائم الصحابة الذين شاركوا في الأحداث الكبرى، لما للمشاركة فيها من قيمة اجتماعية، وهو بذلك يعكس تطور النظرة الاجتماعية في عصره.
- عبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت130-135هـ)
- عاصم بن عمر بن قتادة (120)

ليس أمامنا من مؤلفاتهما إلا مقتطفات حددت إطار المغازي وهيأت جل المواد التي اعتمد عليها ابن إسحاق والواقدي فيما بعد...

- وهب بن منبه (110هـ) هو يماني المولد والثقافة وجاء بوجهة غريبة عن مدرسة المدينة، حيث اهتم بالقصص والاسرائيليات، ومع ذلك فقد ألف في (المغازي) كما في بعض مقتطفاته التي اكتشفها الأستاذ بيكر، أو التي أوردها صاحب حلية الأولياء، وكلها جاءت دون إسناد، وبأسلوب القصاص، وأسلوب الأيام... ومع ذلك فلا يشار لوهب في السيرة والمغازي ثم إن اعتماده بالإسرائيليات، إنما كان لتوضيح

إشارات قرآنية جمعها من قصص كعب الأحبار (33هـ) وابن سلام (40هـ) وكذلك من اتصالاته بأهل الكتاب، أما رواياته عن اليمن فهي أسطورية ملحمية، مأخوذة من القصص الشعبي ليجابه بها تفوق عرب الشمال... ولم يكن وهب دقيقا ولم يترفع عن الكذب، فيُعتبر إخباريا قاصّاً رفضه السخاوي، ومع ذلك فقد جعل وهب من الإسرائيليات مادة لتاريخ ما قبل الإسلام، وقدّم أوّل نموذج للتاريخ العالمي.

- موسى بن عقبة (141هـ) اتبع بدقة مدرسة المدينة، فركز على الإسناد وتواريخ الحوادث، واعتمد على الوثائق والروايات الشفوية، وكتابات أستاذه الزهري، فأضاف بذلك مادة جديدة إلى تراث مدرسته.
- أما محمد بن إسحاق (151هـ) فإنه بدأ يتجه بمدرسة المدينة نحو عنصر المبالغة والقصص بشكل بطئ ، حيث وصلتنا منه أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة، فجمع بين الأحاديث والروايات التاريخية بين والإسرائيليات والقصص الشعبي، مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع، فهو قد روى عن أهل الكتاب فيما يخص (المبتدأ) وروى قصصا قديمة عن بعض الشعوب وعن العرب وعن اليمانيين عن وهب وعن العجم، أما عن (الرسالة) فروى عن أساتذته في المدينة، وإن كانت (المكية) منها غير مسندة ولكنها معنونة بكلمة (قصة كذا) وقد أظهر طريقة الإسناد الجمعي. هذا، ولقد وصلتنا سيرة ابن إسحاق منقحة عن طريق ابن هشام (218هـ) الذي أخذها برواية البكائي، حيث حاول ابن هشام أن يحذف المبتدأ والأقسام الضعيفة والشعر الموضوع، وأن يجعلها أقرب إلى وجهة نظر المحدث،ين وبذلك صار الجميع (مؤرخون ومحدثون) ينظرون إليها بعد ذلك نظرة استحسان بل اعتماد. وينسب لابن إسحاق كتاب (تاريخ الخلفاء) ولم يصلنا منه إلا مقتطفات يسيرة...
- محمد بن عمر الواقدي (130-207هـ) كان أكثر دقة وانتظاما ومنطقية من ابن إسحاق في تناول المادة واستعمال الأسفار وتحقيق الحوادث والاعتدال في الاقتباس من الشعر، مع تقليص القصص الشعبي... ولقد استعمل الاسناد الجمعي ليعطي المواد الأساسية عن كل غزوة، ثم يورد روايات فردية للتفاصيل، ليظهر أثر البحوث الشخصية في المادة الإضافية التي يقدمها وفي ضبط التواريخ وفي تحديد جغرافية المعارك، حيث أنه زار المواقع وبحث عن الوثائق، وهو صريح في رواياته، مع أنّه علوي قليلا، إلّا أنّه بعيد عن التحزب، ونحسّ لديه بأثر القصص، والملاحظ أنّه لم يأخذ شيئا عن ابن إسحاق، لنظرة أهل المدينة له آنذاك. وللواقدي كتاب (التاريخ الكبير) عن أحداث التاريخ الإسلامي والخلفاء حتّى عام 180هـ تقريبا، أما كتابه (الطبقات) فهو عن المحدثين في الكوفة والبصرة ممّا يدلّ على أثر مدرسة الحديث. ثمّ يأتي بعده كاتبه ابن سعد.

- محمد بن سعد (230هـ) صاحب الطبقات الكبرى، حيث يضع في بدايتها الخطوط واللمسات الأخيرة لهيكل السيرة، إذ ذهب أبعد من أستاذه الواقدي في تنظيم مادته وتبويبها وإعطاء مجموعة أوفى من الوثائق ولقد ركّز كثيرا في الحديث عن شمائل النبي (ص) ودلائل نبوته فاقتفى أثره المتأخرون في اهتمامهم بأدب الشمائل والدلائل. كما أنّه استطاع أن يستوعب تفاصيل تاريخية كثيرة من خلال عرضه لتاريخ وسير الصحابة وأحاديثهم.

إذن:

بداية الدراسات التاريخية: الاهتمام [بالحديث + أقوال الصحابة + إجماع الأمة + تحارب الأمة + الخلافة]

تطور الدراسات التاريخية: الاهتمام [بالتفسير + المشيئة الإلهية في المجتمع + أهل الكتاب + القصاص...]

4. أما الاتجاه الثاني للكتابة التاريخية فإنه تشكل من استمرار الاهتمام بالمآثر والأنساب القبلية، سواء في أيام الجاهلية أو الفتوحات الإسلامية، إضافة إلى ظهور عصبيات محلية للأمصار، وقد شجّع الأمويّون تلك الدّراسات لتعلّقها بأغراض سياسية وإدارية... وفي ق 2هـ نشط الإخباريون في خط الدّراسات التاريخية في رواياتهم وأقاصيصهم، في حين قام النسون واللغويون بدورهم في دعم الدّراسات التاريخية، حتّى أنّ كتاباتهم كانت متداخلة، ولقد ركّزت فعالياتهم في مراكز الاستقطاب للقبائل العربية كالبصرة والكوفة. ولقد كانت القصص والأخبار تُروى في مجالس السمر القبلية، سواء في القصر أو المسجد أو السوق... وظهر رواةٌ يروون أخبارا متفرقة، ولمعت أسماؤهم في نهاية ق هـ 1 وفي مطلع ق 2 هـ ظهر الاتّجاه لجمع هذه الأخبار وروايتها بشكل متصل منظم حول حادث ما، فظهر بذلك الإخباريون في الاتّجاه القبلي، وركّز هؤلاء على: الروايات العائليّة/ ثمّ القبيلة/ ثمّ المحلية/ ثمّ دُعّمت بروايات مكّة والمدينة، واعتمدوا أيضا على السجلات الحكومية في العراق وديوان الجند وديوان الخاتم...

وممّا يؤكّد الإطار الإسلامي لهذا الإتجاه أنّه لم يكن باستطاعة الإخباريين تجاهل الاسناد، وإن كانوا قد تساهلوا فيه قليلا، وكان جمع الأخبار جزءًا من ظاهرة ثقافية عامة وهي ظاهرة جمع الروايات. هذا، وإن لم تصلنا كتب الأولين منهم فإنّنا سنتكلم عنهم من خلال المقتطفات الكثيرة التي احتوتها كتب البلاذري والطبري وغيرهما من المتأخرين نسبيا...

- أبو مخنف لوط بن يحي الأزدي 157هـ إخباري نسابة كوفي له 30 كتابا عن الراشدين والأمويين، حتى أنه اعتُبر أمير الإخباريين في العراق، تسامح في الإسناد واعتمد على عائلته حول (صفين) وعلى قبيلته الأزد وبعض رواة الكوفة من كندة وهمدان وطيء كالشعبي، وعلى بعض رواة المدينة. وهو يظهر وجهة نظر

العراقيين الكوفيين في الحوادث، فهو أميل للعراق من الشام وأميل للعلويين من الأمويين وأميل للأزد واليمانية من غيرهم... ولكنّ أخباره في العموم ليست متحزبة. ولئن كانت سلاسله متصلة إلا أنّ تماسكها ضعيف أحيانا وهو يكثر الخطب والمحاورات والشعر... ممّا يعكس أثر مجالس السمر وشيئا من قصص (الأيام) في أسلوبه.

- عوانة بن الحكم الكلبي 147هـ إخباري نسابة كوفي له عن الأمويين كتاب (سيرة معاوية وبني أميّة) وعن ق 1هـ كتاب التاريخ، تدلّ رواياته على معرفة داخلية بشؤون الأمويين نتيجة اتّصالاته بقبيلة كلب الموالين لهم، والتي كان يفتخر بعلمها، ولذلك يقدم الرواية الأموية للحوادث كثيرا، حتى أنّ تأكيد الأمويين على فكرة الجبر ينعكس في رواياته، ومع ذلك يورد أحيانا الروايات العراقية والمدنية المضادّة للأمويين، فيمكن القول أنّه لم يكن متحيّزا لجهة خاصة ثمّ إنّ خطّته في كتابة التاريخ العام على أساس التسلسل التاريخي تمثل خطوة لها دلالتها في تطور الاتجاه الثاني، ولقد استعمل الاسناد بصورة مفككة، كما أنّ كثرة إيراده الشعر تعكس أسلوب قصص الأيام والسمر.
- سيف بن عمر التميمي 180هـ كوفي له كتاب (الردّة والفتوحات) وكتاب (الفتنة ووقعة الجمل) ويقدّم الروايات القبلية التميمية، والإقليمية الكوفية العراقية، وتكاد تكون عاطفية على أسلوب (الأيام) كما أنّه استفاد من رواة المدينة كابن إسحاق.
- نصر بن مزاحم العطّار (ت 212هـ) إخباري كوفي شيعي كل محاوره تهمّ الشيعة [الجمل/صفين/كربلاء/المختار/مناقب الأئمة] فميوله علوية عراقية واضحة، حتّى أنّه يورد الأحاديث، وحتّى القصص ليسند قضية الإمام علي، ومع ذلك فإنّه حين يتناول مثالب معاوية لا يخفي بعض النقد الموجّه للحزب العلوي من خصومه. ونتيجة لميول نصر الحزبية نجد البعض ينتقده بشدّة بينما يثني عليه آخرون... وكتابه عن صفين على سبيل المثال يحتوي على قصة تنبض بالحيوية، لكنه شبه قصصي، وشعره موضوع، وعنايته بالتواريخ ضعيفة، وفي إسناده كثير من التساهل، وأمّا أسلوبه فيعكس (الأيام) والسمر.
- علي بن محمد المدائني 225هـ بصري استقر في بغداد. ووصلت دراسات الإخباريين قمتها عنده، حيث يظهر الإنسان أقوى ممّا كان عليه، كما اتّجه نحو جمعٍ أوسعٍ وتنظيم أوفى للروايات، مضيفا إلى ذلك بحوثه الخاصة، ولقد ألّف 240 كتابا من السيرة إلى العباسيين والأشراف والشعراء. وهو يتمتع بثقة أكثر من أسلافه لاتّباعه أسلوب المحدثين بدقّة، ولأخذه من روايات المدينة والبصرة، أمّا عن الخوارج فكان أوفى وأكثر توازنا ممن سبقه.

5. أمّا الأنساب فإنّها خدمت مادّة التاريخ وخطة كتابته بالعناية بها في الإسلام (الدواوين/اهتمام الأمويين بها/الخصومات القبلية/عمليات الإسكان/تنظيم الجيوش...) وقد وردت معلومات الأنساب في الشعر (خاصة النقائض) والروايات القبلية وسجلات الدواوين. وكان النسابون في ق1هـ يركزون على قبيلة واحدة وبدأ الاهتمام في ق2هـ بأنساب قبائل العرب مثل أبي اليقظان (190هـ) الذي جمع الأنساب من روايات القبائل، ولم يبق له إلّا مقتطفات قليلة؛ إلّا أنّ التطورات الثقافية والصلات الوثيقة بين الأنساب والأخبار والآداب ظهرت في اثنين من قبيلة كلب هما: محمد بن السائب الكلبي (146هـ) ثمّ ابنه هشام (204هـ). فأما الأول فقد اعتمد على أفضل نسابة في كل قبيلة وكذلك اعتمد على الشعراء، ورغم أنّ المحدثين ينتقدونه ويتّهمونه بالغلوّ في التشيّع إلّا أنّ مقدرته في الأنساب مجمع عليها، وأمّا ابنه فتقدّم بدراسات والده في كتابه (جمهرة النسب) إضافة إلى دراساته التاريخية عن الأيام والأنبياء والفرس والعرب وصدر الإسلام... فذهب إلى أهل الكتاب وإلى الفرس وإلى النسابين وإلى وثائق الحيرة، أمّا عن اليمن فيأخذ عن القصاصين دون تدقيق، وعن صدر الإسلام يأخذ كثيرا عن عوانة وأبي مخنف.

- الهيثم بن عدي (206هـ) جمع بين الأخبار والأنساب في أكثر من خمسين كتابا فمثلا كتاب (تاريخ الاشراف الكبير) هو أخبار في إطار الأنساب، وله أيضا (طبقات الفقهاء والمحدثين) وفيهما تفصيل عن خطط الكوفة والبصرة وعن طبوغرافية المدينة، وله كتاب عن صدر الإسلام حسب السنين (كتاب التاريخ على السنين) إلّا أنّه منتقد بشيء من الضعف والتساهل في استعمال الاسناد.
- مصعب الزبيري (236هـ) كتب (النسب الكبير) و(نسب قريش) وقد أشار فيهما بأنه رجع إلى الروايات الشفوية عن الزهري وعن الزبيريين وعن النسّابين وعن الرواة... وقد ركّز على أخبار التحولات في روابط النسب، وعلى الأشعار.

6. وفي القرن 2هـ نفسه شارك اللغويون في التاريخ بشكل واضح، لأنّ المتطلبات اللغوية انضمت إلى المنافسات القبلية في الدفع إلى دراسة الأشعار، ثم انضاف إليها الصراع الثقافي الشعوبي بين العرب والعجم، وخاصة منهم الفرس.

- فقد كان شعراء البدو يقدمون للأشعار التي في حقائبهم الذهنية بمقدمات نثرية عن الظروف التي قيلت فيها؛ فلذلك اهتم بعض اللغويين بالأنساب والأخبار كثيرا لشرح الشعر والكلمات، كأبي عمرو بن العلاء الذي كان: "أعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وأيام الناس"
- وفي نفس الاتجاه —بل أكثر— سار تلميذه أبو عبيدة معمر بن المثنى (110-211هـ) حيث قام بدراسات شاملة للروايات العربية الشمالية، فقال عنه أبو الفرج "من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها

وأشعارها وأنسابها ولغاتها" وقد كتب عن تاريخ العرب والإسلام في إطار دراساته اللغوية، ولكنه كان بتعمق في إيراد الروايات عن (الأمصار) و(المفاخر) و(المثالب) و(المعارك) و(الأبطال) و(الأحزاب) و(القضاة) و(الموالي)... إلى جانب الحديث والقرآن والشعر، ولذلك جعله المبرد أعلم أقرانه "بأيام العرب وأخبارهم" وكذلك قال ابن قتيبة، وفعلا فقد اعتمد عليه المؤرخون كثيرا فيما بعد. وقد حاول أن يكون مُدقّقا بذكر الرواة واكتمال الروايات عن الموضوع الواحد، ونلاحظ أمانته في نقله عن البدو في روح الروايات وأسلوبها، أمّا اعتماده على مدوناته فهو تمثيل صادق للمرحلة التي عاش خلالها.

ولئن كان أبو عبيدة يميل إلى الشعوبية ضد العرب، خاصة في (كتاب الموالي) و(فضائل الفرس) و(مثالب العرب)... إلّا أن منزلته العلمية عالية، ولا يمكن اتهامه بالوضع، لأنه يميل إلى (أهل التسوية) من الخوارج...

- كان للشعوبيين أثرهم في الدراسات التاريخية حين شوّهوا العرب، فكان ردّ فعل العرب أن قاموا بدراسة واسعة لآدابهم وتاريخهم. لقد شهد القرن 2 ترجمة مكثّفة عن الفارسية، فقد ترجم ابن المقفع (~~104~~هـ) كتاب (خداينامه) عن الفهلوية وسماه (سير الملوك) وكثرت الترجمات المماثلة لهذا الكتاب، مع إضافة كثير من الأساطير والأخبار القديمة، وتركز الخداينامة على التاريخ القديم لإيران كما يراه دهاقينهم، فمنها أساطير (الأفستا) والأنساب الخيالية وقصص الاسكندر، فلا تفرق بين الأسطوري والقصصي والتاريخي؛ وإن كان الحديث عن الساسانيين قريباً إلى الواقع، إلا أنه امتلأ بالخطب البليغة... ولقد ترجمت كتب أخرى مثل الآيين نامه (كتاب التقاليد) والكاه نامه (كتاب العظماء)... ولم يكن فيها تسلسل تاريخي، إذ لم يكن لديهم تقويم ثابت، كما أنها قدمت مادة تاريخية مشوشة لما قبل الإسلام، ولم تأت بخطة جديدة للكتابة التاريخية، مع أنها أدخلت عنصرا قصصيا ضعيفا مع كثير مما هو أسطوري إلى الموارد التاريخية ثم إن دوافع الترجمة هنا كانت سياسية حضارية وهناك ترجمات عن اليونانية والسريانية إلا أنها ثقافية انعدم تأثيرها أو يكاد على الكتابة التاريخية.

7. إنّ كلّ الدراسات التاريخية التي ذكرناها أنتجت مادّة واسعة على مستويات مختلفة من الدقّة، وإن كان أسلوب النقد عند المحدثين قد استقر في العراق مؤخرا. فتركز الشعور بأهمية إجماع الأمة وخبراتها وتفوق الاتّجاه الإسلامي على القبلي فأثر كلّ ذلك على كتابة التاريخ، وقد شهد النصف الثاني من ق3هـ ظهور مؤرخين استفادوا من كلّ الاتجاهات وشملت دراستهم كلّ الأمة بصورة منظمة، وكان أُفُقُهُمْ عالميا، وكان عملهم هو انتقاء المادّة بعد نقدها.

- أحمد بن يحي بن جابر البلاذري (279هـ) له كتاب (فتوح البلدان) الذي يقدّم فيه قصّة متسلسلة عن فتح كل مصر، أخذ المادّة عن كل مصر أثناء زيارته له وسماعه الروايات المحلية وقراءته للكتب الخاصة

به، فأورد كثيرا من المعلومات الثقافية والاقتصادية والإدارية... وله أيضا كتاب (أنساب الاشراف) يعرض فيه التاريخ الإسلامي في إطار الأنساب، بمزيج فذ في الخطة والمادّة، فتشمل سيرة الخليفة كل الأحداث والأحزاب في عهده مع عناوين فرعية للحوادث الأمة، وهو يعكس لنا مدى استقرار الكتابة عن المؤرخين السابقين حين يقول "قال الواقدي في إسناده" أو "قالوا" وهو دائم النقد لمصادره ،كما أنه يعطي الأولوية للروايات المحلية وللرواة المختصين، فيعتمد على الواقدي والزهري في السقيفة وعلى الزبير بن بكار في الأنساب وعلى الواقدي وعوانة في وقعة الحرة...أما مصادره فمنها الشفوية (حدثني/قال لي...) والمكتوبة (روى) وكثيرا ما يورد الإسناد الجمعي ليدل على الاتفاق على المعلومات الأساسية، ثم يورد إضافات بسيطة، ولديه بعض الروايات المنفردة بلا إسناد. ورغم اتصاله بالعباسيين إلا أنه محايد ومتزن، ويحاول بصورة جدية أن يكون موضوعيا في أخباره. إذن فهو يعبر في (الأنساب) عن وحدة الأمة واتصال خبراتها، وأما (الفتوح) فيظهر قيمة خبرة الأمة للأغراض الإدارية والتشريعية.

- اليعقوبي (284هـ) صاحب فكرة التاريخ العالمي، وله ثقافة واسعة وخبرة إدارية، وجمع في أسفاره معلومات جغرافية وتاريخية أثرى بها كتابيه (البلدان) و(التاريخ) ففي الأول كتب عن الجغرافيا التاريخية سبق بها غيره من العرب والمسلمين، وأما الثاني فهو خلاصة وافية للتاريخ العالمي والتاريخ الإسلامي حتى سنة 259هـ. وهو لا يقتصر على الأنبياء والفرس والعرب قبل الإسلام، بل الآشوريين والبابليين والهنود واليونان والمصريين والحبشة والزنوج والبربر والترك والصين... وتركيزه على الجوانب الثقافية كالجغرافيا والفلك أثناء السرد يعكس امتزاج الثقافات آنئذ في المجتمع الإسلامي. واليعقوبي دقيق في أخذه عن المصادر الأولية في تاريخ الأنبياء، وهو يشير إلى أسطورية مادة التاريخ الإيراني القديم، كما أنه يستعين بالترجمات اليونانية عن تاريخ اليونان، أما عن التاريخ الإسلامي فهو يدقق في الروايات وينتقي منها، مع أنه لا يهتم بالأسانيد لأنها استقرت قبله. ولأن كان اليعقوبي متزنا في أخباره ودقيقا بصورة عامة إلا أنه كان يظهر شيئا من اتجاهاته العلوية في بعض التفاصيل، وبالضبط كان "إماميا" فهو يشير إلى ثورة "زيد" بإيجاز شديد، إضافة إلى بعض التسامح والمجاملة مع العباسيين فيسمي دعوتهم (الدعوة) ودولتهم (الدولة) ويكاد يقرن بين المهدي العباسي والمنتظر، وكلّها نقاط لا تحدّ من قيمة الكتاب في تطور علم التاريخ عند العرب، لقد كانت خطته حسب السنين مع مراعاته لتسلسل الحوادث في ذلك الإطار. إلّا أنّ اختصاره للحوادث المعاصرة كالزنج لا يمكن تفسيره إلّا بخطته في إظهار تطور الأمة وسدّ حاجتها الثقافية، مما يجعل التركيز على التاريخ المعاصر غير ذي أهمية.

- ابن قتيبة (270هـ) امتزجت في كتابه مختلف خطوط الكتابة التاريخية، وفيه فكرة التاريخ العالمي، وإن اختصر أيام العرب وركز على فقه الفتوح (العنوة/الصلح...). اعتمد على مصادر مكتوبة وشفوية، وكلها لها منزلة عالية كابن إسحاق والواقدي، وكان أول من رجع إلى (العهد القديم). ويتميز عموما بالحياد، مع إيراد الآراء السائدة، والتأكيد على الحقائق الثابتة.
- الدينوري (282هـ) اهتم بالتاريخ العالمي في كتابه (الأخبار الطوال) ركّز على التسلسل التاريخي وتفصيل الحوادث الهامة، وقد حاول أن يقدّم صورا متوازية مترابطة لحوادث ما قبل الإسلام في اليمن والجزيرة وإيران وبيزنطة، وإن كانت إيران قد أخذت منه نصيبا كبيرا، وكذلك بعد الإسلام، إذ يمر مرور الكرام على الرسالة ويركز على حوادث العراق وإيران، وكلها أخبار يربط بينها دون نقد، مع ميْلٍ للعباسيين، ولا يهتم بالإسناد، إذ كان يلخص المؤلفات السابقة، وقد جمع في مادته المصادر الإسرائيلية والفارسية والروايات العراقية والمدنية...
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (310هـ) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) هو قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في فترة التكوين، حيث تأثر بثقافته كمفسر ومحدث وفقيه، فاتجه إلى الإسناد واعتمد على المصادر الموثوقة وهو يعبر عن فكرتين: وحدة الرسالات وأهمية اتصال خبرات الأمة. وعن طريقه وصلتنا كتابات وروايات مبكرة لم تحفظ إلّا في تاريخه، وبما أن الروايات قد تتأثر بالذاكرة والميول فلا يمكن الجزم بدقتها وسلامتها حتى بعد نقدها وتمحيصها، ولذا فيكفي عنده نقل الروايات ممن يوثق بهم والعهدة في صحتها عليهم. وعليه فإن الطبري يظهر رأيه في تمحيصه للروايات وأخذ البعض منها دون الآخر، وهو يتجنب إعطاء حكم، ويندر أن يفضل رواية على أخرى مادام قد أورد روايات مقبولة، ويُبدي حيادا واضحا فيما يورد من روايات. وقد حرص الطبري على إعطاءنا جميع الروايات حول كل حادثة، ومن ثم لم يستطع تقديم تاريخ متصل للحادث، ويبدو أنه أراد أن يصنف كافة الروايات العربية في كتابه، وهو منحى سبق إتباعه في الحديث النبوي وهذا يفسر العدد الضخم لمصادره. وهذه خدمة كبرى قدّمها الطبري، وهو بذلك ينهي العصر الأول في تطور الكتابة التاريخية، لأننا لا نرى أحدا بعده حاول إعادة فحص المصادر التاريخية للفترات التي كتب الطبري عنها.

8. هذا وقد ظهرت بعد ذلك تواريخ محلية في القرن الثالث الهجري مثل (فتوح مصر) لابن عبد الحكم 257هـ و(تاريخ واسط) لبحشل 288هـ و(تاريخ بغداد) لطيفور 280هـ ... وتتضمن هذه التواريخ عادة بعض المعلومات الجغرافية أو الخطط.

نخلص في الأخير إلى أن علم التاريخ عند العرب هو تطور طبيعي في الإسلام، فالدين الجديد وتكوين امبراطورية ووضع تقويم ثابت ... كل هذه هيأت الأساس. ثم إن الاتجاهات الإسلامية المتمثلة في الاهتمام بسيرة الرسول صلّى الله عليه وسلم وبإجماع الأمة وخبراتها وبآراء وأحكام علمائها وبالحوادث الكبرى التي حددت سيرها التاريخي، كانت هي الدوافع الرئيسية لدراسة التاريخ في المدينة، ومن جهة ثانية فإن الاتجاهات القبلية نحو العناية بالأنساب والأيام والشعر استمرت في المراكز القبلية الجديدة في الكوفة والبصرة في إطار جديد، ووجدت حوافز جديدة في التيارات السياسية والاجتماعية والمدنية الجديدة، ووراء هذين الاتجاهين كان هناك الشعور لدى الجميع برسالة تاريخية، وهذا يوضح نسبيا ذلك التنوع وتلك السعة في الكتابات التاريخية ... وبما أن الإسلام يعنى بالحياة كلها فإن التاريخ هنا خير مرشد، لأنه يقدم أمثلة على الحياة الفضلى وغيرها وما يساعد على تنوير الحكام والرعية، فهو إذن مهمٌّ جدًّا للثقافة، ثم إن الإجماع مصدر مهم للتشريع، والتاريخ بخطوطه الكبرى تعبير عن إرادة الله، أما الحوادث والحركات الفردية فالمسؤولية البشرية فيها أكيدة ... ولنذكر هنا أن مبدأ حرية الإرادة وجد مجالا واسعا على يد المتكلمين والمعتزلة في العصر العباسي الأول، ومع أن أهل الحديث انتصروا على المعتزلة سياسيا في النصف الأول في ق3هـ إلّا أن التفوق الثقافي جاء بعد ذلك. لذلك يتعذر التأكيد –كما فعل البعض– على سيطرة مبدأ الجبر وما يترتب عليه في كتابة التاريخ في هذه الفترة، فاتخاذ الأسباب إذن موجود في الفعاليات البشرية ضمن مشيئة الله في العالم.[1]

---

[1] د. عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب وتطوره في القرون الثلاثة الأولى، ص13-60.